

أصبح من عبادي

مؤمن وكافر بي

(٢٢ شوال ١٤٣٦ هـ)

لأبي عبد الرحمن

عبد الرقيب بن علي بن أحمد أبو عبد الرحمن الكوكباني

كان الله له في الدارين

بمسجد أم القرى صنعاء

حرسها الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا
إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما
كثيرا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١)،
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ
مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
رَقِيبًا﴾^(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ
أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣). أما
بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه
وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

^(١) سورة آل عمران: (١٠٢).

^(٢) سورة النساء: (١).

^(٣) سورة الأحزاب: (٧٠-٧١).

معاشر المسلمين، يقول الله عز وجل في كتاب الكريم: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(٤) [إبراهيم: ٣٤].

^(٤) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السماوات سقفاً محفوظاً والأرض فراشا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع - إلى قوله: - وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توأبين وامسوا توأبين. ("تفسير القرآن العظيم" / ٤ / ص ٥١١).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليه، ولا أحد أعظم إحساناً من الله سبحانه، فإن إحسانه على عبده في كل نفس ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو عن أفرادها، ويكفي أن من بعض أنواعه نعمة النفس التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة، فإنه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس، وكل نفس نعمة منه سبحانه، فإذا كان أدنى نعمة عليه في كل يوم أربعة وعشرين ألف نعمة فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] [النحل: ١٨]، هذا إلى ما يصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلها توازن النعم في الكثرة، والعبد لا شعور به بأكثرها أصلاً، والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. ("طريق المهجرتين" / ص ٣١٥).

ويقول الله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^(٥) [النحل: ٥٣]،

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(٦) [العاديات: ٦].

يقول الحسن البصري رحمه الله فيما روي عنه^(٧): ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ

لَكَنُودٌ﴾ قال: هو الكفور الذي يعد المصائب، وينسى نعم ربه.

^(٥) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع رسله، وفطرته التي فطر عباده عليها، وما ركب فيهم من العقوق، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كان الإحسان منه؟ وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجَّارُونَ﴾ [سورة النحل: ٥٣]. وما تعرف به إلى عباده من أسائه الحسنی وصفاته العلاء، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته. ("الجواب الكافي" / ص ٢٢٨).

^(٦) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: بمعنى: أنه لنعم ربه لجحود كفور. ("تفسير القرآن العظيم" / ٨ / ص ٤٦٧).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: إن الكنود هو الكفور، وهو الذي يذكر المصائب، وينسى النعم.

("طريق المهجرتين" / ص ٣٤٣).

^(٧) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٤ / ص ٥٦٦): حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع، عن مهدي بن

ميمون، عن شعيب بن الحباب، عن الحسن البصري: (إن الإنسان لربه لكنود) قال: هو الكفور الذي يعد

المصائب، وينسى نعم ربه.

سنده صحيح.

وأخرجه أيضا

فنحن في هذا الأسبوع أكرمنا الله بالغيث العميم بغيث السماء^(٨) في مطر نازل.

وهو رحمة الله على عباده، يسقي به الله الأرض والإنسان والحيوان والنبات^(٩). نعم. هذا الماء النازل من السماء نعمة وغيث لما فيه من الإغاثة

وأخرجه أيضا من طريق آخر في (٢٤ / ٥٦٦).

وأخرجه ابن مندة في الأمالي (٣٠٤) وابن أبي الدنيا في "الشكر" (٦٢) عن الحسن به.

^(٨) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فالله سبحانه ينشيء الماء في السحاب إنشاء تارة يقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم التي ذكرناها ولو انه ساقه من البحر الى الأرض جاريا على ظهرها لم يحصل عموم السقي الا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقي لأجزائها فصاعدة سبحانه الى الجو بلطفه وقدرته ثم انزله على الأرض بغاية من اللطف والحكمة التي لا اقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمته على الأرض. ("مفتاح دار السعادة" / ١ / ص ٢٢٣ - ٢٢٤).

^(٩) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا اخذت الأرض حاجتها منه، وكان يتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما، أعني الصحو والغيم يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ولو دام أحدهما كان فيه فساد فلو توالى الأمطار لأهلك ما على الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والشمار وعفنت الزروع والخضروات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء، فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المأكَل وتقطعت المسالك والسبل.

ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغبض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضرر واحتدم الهواء، فبيس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الأمراض عسرة الزوال فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل

للملهوفين ورحمة. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾^(١٠)
[الأعراف: ٥٧].

﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(١١) إِنَّ ذَلِكَ لُمُحْيِي الْمَوْتَى
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾ [الروم: ٥٠].

انظروا إلى هذا الغيث يا معاشر المسلمين. نعم ، والله، غيث متوالي عمّ
المحافظات والمدن والقرى والعزل والأرياف. نعمة من الله على الناس^(١٣). فهلا
شكروا على مثل هذه النعم؟^(١٤)

الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلاح. ("مفتاح دار السعادة"
/ ١ / ص ٢٢٤).

^(١٠) على قراءة (بشراً). وهناك قراءة (نشراً). قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، هو الذي يرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته. و"النشر" بفتح"النون" وسكون"الشين"، في كلام العرب، من الرياح، الطيبة اللينة الهبوب، التي تنشئ السحاب. وكذلك كل ربيع طيبة عندهم فهي "نشر". ("جامع" / ١٢ / ص ٤٩٠).

^(١١) قال الإمام الطبري رحمه الله: بمعنى: فانظر يا محمد إلى أثر الغيث الذي أصاب الله به من أصاب من عباده، كيف يحيي ذلك الغيث الأرض من بعد موتها. ("جامع البيان" / ٢٠ / ص ١١٦).

^(١٢) قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول جل ذكره: إن الذي يحيي هذه الأرض بعد موتها بهذا الغيث، لمحيي الموتى من بعد موتهم، وهو على كل شيء مع قدرته على إحياء الموتى قدير، لا يعز عليه شيء أراد، ولا يمتنع عليه فعل شيء شاءه سبحانه. ("جامع البيان" / ٢٠ / ص ١١٦).

معاشر المسلمين نقف معكم في هذا المقام إن شاء الله عن حديث من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموضوع. روى البخاري ومسلم في صحيحهما^(١٥) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحدبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال:

^(١٣) قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولا يزال الله هو المنعم المتفضل على العبد وحده لا شريك له في ذلك؛ بل ما بالخلق كلهم من نعمة فمن الله؛ وسعادة العبد في كمال افتقاره إلى الله. ("مجموع الفتاوى" / ١ / ص ٤١).

^(١٤) قال شيخ الإسلام رحمه الله: فإنه يشهد نعم الله عليه وذاك داع إلى شكرها؛ وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها والله تعالى هو المنعم المحسن الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده. ("مجموع الفتاوى" / ٨ / ص ٣٢).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها وأسبابها من نعمه على العبد وإن حصلت بكسبه فكسبه من نعمه فكل نعمة فمن الله وحده حتى الشكر فإنه نعمة وهي منه سبحانه فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته وشكره نعمة منه عليه. ("شفاء العليل" / ص ٣٨).

^(١٥) أخرجه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١).

مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا^(١٦)، فذلك كافر بي^(١٧) ومؤمن بالكوكب^(١٨).

هذا الحديث معاصر المسلمين نقف مع ألفاظه وكلماته لما فيه من الحكم والأحكام والفوائد العظام في مسألة الغيث وماء السماء.

معاصر المسلمين، صحابي الحديث هو زيد بن خالد الجهني، أبو عبد الرحمن وقيل: أبو طلحة المدني لتزوله في المدينة، وأصله من اليمن من قبيلة جهينة

^(١٦) قال الإمام الشافعي رحمه الله: رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "بأبي هو وأمي" هو عربي واسع اللسان يحتمل قوله هذا معاني، وإنما مطر بين ظهري قوم أكثرهم مشركون لأن هذا في غزوة الحديبية، وأرى معنى قوله، والله أعلم أن من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك إيمان بالله لأنه يعلم أنه لا يمطر ولا يعطي إلا الله عز وجل وأما من قال مطرنا بنوء كذا، وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه أمطره نوء كذا فذلك كفر كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه، ولا لغيره شيئاً، ولا يمطر، ولا يصنع شيئاً فأما من قال: مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا بوقت كذا فإنما ذلك كقوله مطرنا في شهر كذا، ولا يكون هذا كفراً، وغيره من الكلام أحب إلي منه (قال الشافعي): أحب أن يقول مطرنا في وقت كذا. ("الأم" / للشافعي / ١ / ص ٢٨٨).

^(١٧) من نسب النعمة إلى مجرد السبب لا إلى الله تعالى فقد أشرك. قال شيخ الإسلام رحمه الله: والأسباب التي جعلها الله أسباباً لا تجعل مع الله شركاء وأندادا وأعوانا. ("مجموع الفتاوى" (٢٧ / ٩٥).

^(١٨) قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهذا كثير جداً في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشركه به قال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً. ولهذا قرن الشكر بالتوحيد في الفاتحة وغيرها: أولها شكر وأوسطها توحيد. ("مجموع الفتاوى" (٨ / ٣٣).

من أكرم قبائل اليمينية على الله وعلى رسوله إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين^(١٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قريش، والأنصار، وجهينة، ومزينة، وأسلم، وأشجع، وغفار موالي، ليس لهم مولى دون الله ورسوله».

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه^(٢٠)، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأنصار، ومزينة، وجهينة، وغفار، وأشجع، ومن كان من بني عبد الله، موالي دون الناس، والله ورسوله مولاهم».

(مواليّ دون الناس)، أي: من الولاية والنصرة والأخوة. نعم. والله ورسوله مولاهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه^(٢١)، قال: قال: «أسلم، وغفار، وشيء من مزينة، وجهينة، - أو قال: شيء من جهينة أو مزينة - خير عند الله - أو قال: يوم القيامة - من أسد، وتميم، وهوازن، وغطفان».

هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم.

^(١٩) أخرجه البخاري (٣٥٠٤) ومسلم (٢٥٢٠).

^(٢٠) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٥٤٣) والبخاري (٢٥٢٠) ومسلم (٢٥١٩).

^(٢١) أخرجه البخاري (٣٥٢٨) ومسلم (٢٥٢١).

قال العلامة ابن عبد البر رحمه الله تعالى في زيد بن خالد^(٢٢): كان صاحب لواء جهينة يوم الفتح.

كان هذا الرجل الصالح يحمل الراية عن قومه يوم الفتح. وتوفي رضي الله عنه وأرضاه عام ثمانية وستين من الهجرة عن عمر خمسين وثمانية عاماً. رضي الله عنه وأرضاه.

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة وروى عن أصحابه كعثمان بن عفان، وعائشة أم المؤمنين.

يقول هذا الصحابي الجليل: (صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية).

صلى لنا، أي: صلى بنا^(٢٣). وهذا يدل على أن أحرف الجرّ ينوب بعضها عن بعض كما يقول الله عز وجل في كتابه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(٢٤) [الإنسان: ٥-٦].

^(٢٢) "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" (٢/ ٥٤٩).

^(٢٣) قال ابن حجر رحمه الله: قوله: (صلى لنا) أي: لأجلنا أو اللام بمعنى الباء أي: صلى بنا. ("فتح الباري" / ٢ / ص ٥٢٣).

^(٢٤) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وقد اختلف في قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ فقال: الكوفيون الباء بمعنى من أي يشرب منها وقال آخرون: بل الفعل مضمن ومعنى يشرب بها: أي يروى بها فلما ضمنه معناه عداه تعديته

يشرب بها، أي: يشرب منها. فحروف الجر تتناوب.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وفيه جواز إطلاق ذلك مجازاً وإنما الصلاة لله تعالى^(٢٥).

وهذا دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إمام قومه في الصلاة وقوم أمته. فإذا كان إماماً لهم في الدين فلا شك أنه إمامهم في الدنيا وسياسة أمورهم على ما يرضي الله وعلى شرع الله. فكان النبي صلى الله عليه وسلم نصّاحاً^(٢٦) منيراً^(٢٧) في ظلام الدجى لأمته^(٢٨)،

وهذا أصح وألطف وأبلغ وقال طائفة: الباء للظرفية والعين أسم للمكان كما تقول كنا بمكان كذا وكذا ونظير هذا التضمن قوله تعالى: ﴿مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ﴾ ضمن معنى يهّم فعدى تعديته. ("حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" / ص ١٨٤).

^(٢٥) "فتح الباري" (٢/ ص ٥٢٣).

^(٢٦) الأنبياء عليهم السلام أنصح الناس للناس. قال الله تعالى: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

^(٢٧) النبي عليه الصلاة والسلام جاء بالنور. قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

^(٢٨) جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمته عند اشتداد الظلمة وأمس حاجتهم إلى النور. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فكان أهل العقول كلهم في مقتته إلا بقايا متمسكين بالوحي فلم يستفيدوا بعقولهم حين فقدوا

وكان مثلاً وقدوة وأسوة^(٢٩) في الولاية الدينية^(٣٠) كالصلاة يؤمّ قومهم بأحسن صوت^(٣١) وأتقن الصلاة^(٣٢). صلوا كما رأيتموني أصلي^(٣٣).

نور الوحي إلا عبادة الأوثان أو الصلبان أو النيران أو الكواكب والشمس والقمر أو الخيرة والشك أو السحر أو تعطيل الصانع والكفر به فاستفادوا بها مقت الرب سبحانه لهم وإعراضه عنهم فأطلع الله شمس الرسالة في تلك الظلم سراجاً منيراً وأنعم بها على أهل الأرض في عقولهم وقلوبهم ومعاشهم ومعادهم نعمة لا يستطيعون لها شكوراً فأبصروا بنور الوحي مالم يكونوا بعقولهم يبصرونه ورأوا في ضوء الرسالة لما لم يكونوا بأرائهم يرونه فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة ٢٥٧] وقال ﴿الرَّكَّابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم ١] وقال ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى ٥٢] وقال ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام ١٢٢] فمضى الرعيل الأول في ضوء ذلك النور لم تطفئه عواصف الأهواء ولم تلتبس به ظلم الآراء وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم وأن لا يخرجوا عن طريقهم. ("الصواعق المرسلّة" / ٣ / ص ١٠٦٨-١٠٦٩).

^(٢٩) قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

^(٣٠) وجب أن نأخذ الدين من النبي صلى الله عليه وسلم. عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة، والرجم». (أخرجه مسلم (١٦٩٠)).

وعن جابر، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته يوم النحر يقول: «لتأخذوا عني مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج حجة أخرى». (أخرجه الطبراني في "مسند الشاميين" (٩٠٨)).

وكان مثلاً ونبراساً في الإمامة السياسية^(٣٤) ساس الناس بالكتاب
والسنة^(٣٥)،

وأبو نعيم في "المستخرج على صحيح مسلم" (٢٩٩٥) والبيهقي في "السنن الكبرى" (٩٥٢٤) بسند صحيح).

وأصل الحديث أخرجه مسلم (١٢٩٧)

^(٣١) عن البراء رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ: ﴿والتين والزيتون﴾ في العشاء، وما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه أو قراءة. (أخرجه البخاري (٧٦٩) ومسلم (٤٦٤)).

^(٣٢) صلاة النبي صلى الله عليه وسلم هي أحسن الصلاة، فصلاته هي القدوة وهي المعيار. عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: ... قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس، إنما صنعت هذا لتأتموا ولتعلموا صلاتي». (أخرجه البخاري (٩١٧) ومسلم (٥٤٤)).

^(٣٣) وجب أن تتأسى بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم. عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه، قال: ... قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وصلوا كما رأيتموني أصلي». (أخرجه البخاري (٦٠٠٨)).

^(٣٤) إن الأنبياء رؤساء الأمم وقوادهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون» قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «فوا بيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم». (أخرجه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢)).

قال النووي رحمه الله: قوله صلى الله عليه وسلم (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي) أي يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية. والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه. ("شرح النووي على مسلم" / ١٢ / ص ٢٣١).

وقال ابن حجر رحمه الله: قوله: (تسوسهم الأنبياء) أي: أنهم كانوا إذا ظهر فيهم فساد بعث الله لهم نبيا يقيم لهم أمرهم ويزيل ما غيروا من أحكام التوراة. وفيه إشارة إلى أنه لا بد للرعية من قائم بأمرها يحملها على الطريق الحسنة وينصف المظلوم من الظالم. ("فتح الباري" / ٦ / ص ٤٩٧).

(٣٥) إن النبي صلى الله عليه وسلم يحكم عباد الله بكتاب الله. وكتاب الله هو القرآن والسنة. عن أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما، قالا: جاء أعرابي، فقال: يا رسول الله، اقض بيننا بكتاب الله، فقام خصمه فقال: صدق، اقض بيننا بكتاب الله، فقال الأعرابي: إن ابني كان عسيفا على هذا، فزنى بامرأته، فقالوا لي: على ابنك الرجم، ففديت ابني منه بمائة من الغنم ووليدة، ثم سألت أهل العلم، فقالوا: إنما على ابنك جلد مائة، وتغريب عام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لأفضين بينكما بكتاب الله، أما الوليدة والغنم فرد عليك، وعلى ابنك جلد مائة، وتغريب عام، وأما أنت يا أنيس لرجل فاغد على امرأة هذا، فارجمها»، فغدا عليها أنيس فرجمها. (أخرجه البخاري (٢٦٩٥) ومسلم (١٦٩٧)).

جلد مائة مذکور في القرآن، وتغريب عام مذکور في السنة، وسأهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كتاب الله، أي: حكم الله.

قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله: قوله: (والله لأفضين بينكما بكتاب الله) يتأول على وجوه أحدها: أن يكون معنى الكتاب الفرض والإيجاب، يقول: (لأفضين بينكما بما فرضه الله وأوجبه) إذ ليس في كتاب الله ذكر الرجم منصوصا متلوا كذكر الجلد والقطع والقتل في الحدود والقصاص. وقد جاء في الكتاب بمعنى الفرض كقوله عز وجل ﴿كتاب الله عليكم﴾ النساء: ٢٤] وكقوله ﴿كتب عليكم القصاص﴾ [البقرة: ١٧٨] أي فرض، وقال عز وجل ﴿وكتبنا عليهم فيها﴾ [المائدة: ٤٥] أي فرضنا وأوجبنا.

ووجه آخر وهو أن ذكر الرجم وإن لم يكن منصوصاً عليه باسمه الخاص، فإنه مذکور في الكتاب على سبيل الإجمال والإيهام ولفظ التلاوة منطوق عليه وهو قوله: ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما﴾ [النساء: ١٦] والأذى يتسع في معناه للرجم ولغيره من العقوبة.

وقد قيل إن هذه الآية لما نسخت سقط الاستدلال بها وبمعناها.

وبشرع الله حتى أعز الله به دينه^(٣٦)،

وفيه وجه آخر وهو أن الأصل في ذلك قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهْنًا سَبِيلًا﴾ النساء: ١٥] فضمن الكتاب أن يكون لهن سبيل فيما بعد ثم جاء بيانه في السنة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلًا؛ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم. ووجه رابع: وهو ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال قرأناها فيما أنزل الله الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة وهو ما رفعت تلاوته وبقي حكمه والله أعلم. (انتهى من "معالم السنن" / ٣ / ص ٣٢٣-٣٢٤).

وكثير من العقود والشروط لم تذكر مفصلة في القرآن ولا في السنة، سماها النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنها ليست في كتاب الله. فهذا يدل على أن كتاب الله قد يشمل القرآن والسنة. عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما كان من شرط ليس في كتاب الله عز وجل فهو باطل وإن كان مائة شرط. كتاب الله الحق وشرط الله أوثق». (أخرجه البخاري ٢١٥٥) ومسلم (١٥٠٤).

قال ابن بطال -رحمه الله-: المراد بكتاب الله هنا حكمة من كتابه أو سنة رسوله أو إجماع الأمة. وقال ابن خزيمة -رحمه الله-: ليس في كتاب الله أي ليس في حكم الله جوازه أو وجوبه، لا أن كل من شرط شرطاً لم ينطق به الكتاب يبطل لأنه قد يشترط في البيع الكفيل فلا يبطل الشرط، ويشترط في الثمن شروط من أوصافه أو من نجومه ونحو ذلك فلا يبطل. (نقله ابن حجر في "فتح الباري" / تحت رقم (٢٥٦٢) / دار مصر).

^(٣٦) بعث الله محمد صلى الله عليه وسلم لإظهار هذا الدين العظيم، بالعلم النافع والعمل الصالح. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة/ ٣٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع - ودين الحق: هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة اهـ. ("تفسير القرآن العظيم" / ٤ / ص ١٣٦).

فمن نصر دين محمد واتبع سنته فهو الظاهر المنصور. قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]. ومن خذله فهو المهين المخذول. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك والأبتر المقطوع النسل الذي لا يولد له خير ولا عمل صالح فلا يتولد عنه خير ولا عمل صالح. قيل لأبي بكر بن عياش: إن بالمسجد قوما يجلسون ويجلس إليهم فقال: من جلس للناس جلس الناس إليه. ولكن أهل السنة يموتون ويحيى ذكركم وأهل البدعة يموتون ويموت ذكركم؛ لأن أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فكان لهم نصيب من قوله: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ وأهل البدعة شئتوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فكان لهم نصيب من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئاً مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أو ترده لأجل هواك أو انتصاراً لمذهبك أو لشيخك أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو بالدنيا فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله والأخذ بها جاء به بحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد فإن من يطيع أو يطاع إنها يطاع تبعاً للرسول وإلا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول ما أطيع. فاعلم ذلك واسمع وأطع واتبع ولا تبتدع. تكن أبتر مردوداً عليك عملك بل لا خير في عمل أبتر من الاتباع ولا خير في عامله والله أعلم. ("مجموع الفتاوى" / ١٦ / ص ٥٢٨-٥٢٩).

وحتى فتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا^(٣٧).

وكان مثالا ونبراساً لأمته في الولاية الاجتماعية^(٣٨).

فكان نعم الجد^(٣٩)، ونعم الزوج^(٤٠)،

^(٣٧) قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. [النصر: ١-٣].

^(٣٨) للنبي صلى الله عليه وسلم رحمة بالغة وشجاعة وكرم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة، فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم وقد استبرأ الخبر، وهو على فرس لأبي طلحة عري، وفي عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا» ثم قال: «وجدناه بحرا» أو قال: «إنه لبحر». (أخرجه البخاري (٢٩٠٨) ومسلم (٢٣٠٧)).

وعن جبير بن مطعم: أنه بينما هو يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفله من حنين، فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوباً، ولا جباناً». (أخرجه البخاري (٢٨٢١)).

^(٣٩) مما يدل على ذلك حديث عبد الله بن شداد عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً أو حسينا، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها. قال أبي: فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة

ونعم المعاشر للرحم، لرحمه فهو أوصل الناس لرحمه حتى من كان منهم كافرًا. «غير أن لهم رحماً سألها بيلاها»^(٤١).

وكان نعم الوالي في الأمور الاقتصادية إذ حرم على الناس الربا^(٤٢)

قال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهري صلواتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك. قال: «كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته». (أخرجه النسائي / (١١٤٠) / صحيح).

وحديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي العاص بن ربيعة بن عبد شمس. فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها. (أخرجه البخاري (٥١٦) ومسلم (٥٤٣)).

^(٤٠) ومما يدل على ذلك حديث عمرو بن العاص، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم جهارا غير سر يقول: «إن آل أبي - قال عمرو: في كتاب محمد بن جعفر بياض - ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين " زاد عبسة بن عبد الواحد، عن بيان، عن قيس، عن عمرو بن العاص، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم: «ولكن لهم رحم أبلاها بيلاها». (أخرجه البخاري (٥٩٩٠) ومسلم (٢٠٤)).

وهذا من جلاله شريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، قالت: قدمت علي أُمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: وهي راغبة، أفأصل أُمي؟ قال: «نعم صلي أُمك». (أخرجه البخاري (٢٦٢٠) ومسلم (١٠٠٣)).

^(٤١) ومما يدل على ذلك حديث عمرة عن عائشة، أنها سئلت: ما كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته؟ قالت: «ما كان إلا بشرا من البشر، كان يفلي ثوبه، ويجلب شاته، ويخدم نفسه». (أخرجه ابن حبان (٥٦٧٥) / صحيح).

وجعله موضوعا تحت قدمه^(٤٣). وأباح للناس التجارة الشريفة^(٤٤)،

^(٤٢) قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِرُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٨١].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وعن ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «ما أحد أكثر من الربا، إلا كان عاقبة أمره إلى قلة». (أخرجه ابن ماجه (٢٢٧٩)/ صحيح).

^(٤٣) كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في قصة حجة الوداع: ... فقال: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية، موضوع تحت قدمي هاتين، ودماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث - كان مسترضعا في بني سعد، فقتلته هذيل - وروبا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله». الحديث. (أخرجه ابن ماجه (٣٠٧٤) والترمذي (٣٠٨٧)/ صحيح).

^(٤٤) قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وأرشد الناس بالصدق في التباعد وبين أن ذلك سبب البركة. عن حكيم بن حزام - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا - أو قال: حتى يتفرقا - فإن

فصار الناس في عافية بعد أن كانوا في سخطه بالربا والظلم والتطفيف في المكيال والميزان^(٤٥).

قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان النبي صلى الله عليه وسلم نشيطاً في أمر العبادة لم يتخلف عن صلاة الجماعة وإنما كان يصلي بهم في كل يوم وكل ليلة ويقتدي الناس به من بعده في الصلاة. وربما تأخر مرة أو مرتين في حياته لأمر من الخير وإصلاح ذات البين. ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، فتأخر قليلاً عن صلاة العصر وتقدم

صدقا وبيننا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتبا وكذبا محقت بركة بيعهما». (أخرجه البخاري (٢٠٧٩) ومسلم (١٥٣٢)).

^(٤٥) فاتباع شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب للبركات والفلاح والسعادة.

قال الله عز وجل في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

أبو بكر وأدرك رسول الله الصلاة معهم ثم قدمه أبو بكر في أثناء الصلاة وتأخر قليلاً^(٤٦).

مرة في عمره لأنه شغل بأمر الوضوء وتقدم في الناس عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم^(٤٧).

^(٤٦) كما في حديث سهل بن سعد الساعدي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، فحانت الصلاة، فجاء المؤذن إلى أبي بكر، فقال: أتصلي للناس فأقيم؟ قال: نعم فصلى أبو بكر، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس في الصلاة، فتخلص حتى وقف في الصف، فصفق الناس وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته، فلما أكثر الناس التصفيق التفت، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن امكث مكانك»، فرفع أبو بكر رضي الله عنه يديه، فحمد الله على ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك، ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف، وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلى، فلما انصرف قال: «يا أبا بكر ما منعك أن تثبت إذ أمرتك» فقال أبو بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما لي رأيتمكم أكثرتم التصفيق، من رابه شيء في صلاته، فليسبح فإنه إذا سبح التفت إليه، وإنما التصفيق للنساء». (أخرجه البخاري (٦٨٤) ومسلم (٤٢١)).

^(٤٧) عن عروة بن المغيرة بن شعبة، أن المغيرة بن شعبة أخبره أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك، قال المغيرة: فبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الغائط فحملت معه إداوة قبل صلاة الفجر، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي أخذت أهريق على يديه من الإداوة وغسل يديه ثلاث مرات ثم غسل وجهه، ثم ذهب يخرج جبته عن ذراعيه، فضاق كما جبته فأدخل يديه في الجبة، حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة، وغسل ذراعيه إلى المرفقين، ثم توضع على خفيه، ثم أقبل قال: المغيرة «فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف فصلى لهم فأدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الأخيرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يتم صلاته فأفزع

وفي سوى هذا لا نعلم في دليل واحد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مأموماً في صلاته إلا في مرض موته الذي لم يقم منه فإنه أمر أبا بكر أن يصلي بالناس^(٤٨).

الله أكبر. يصلي بهم في السفر والحضر.

صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية.

وهي صلاة الفجر، وهي الغداة. كلها أسماء لمسمى واحد. صلاة الصبح التي تكون عند انفجار الفجر، وخروج ضوء النهار في باكورته وأوله.

ذلك المسلمين فأكثروا التسييح فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته أقبل عليهم» ثم قال: «أحسنتم» أو قال: «قد أصبتم» يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها. (أخرجه مسلم (٢٧٤)).

^(٤٨) عن الأسود، قال: كنا عند عائشة رضي الله عنها، فذكرنا المواظبة على الصلاة والتعظيم لها، قالت: لما مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذي مات فيه [ص: ١٣٤]، فحضرت الصلاة، فأذن فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فقبل له: إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام في مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فأعادوا له، فأعاد الثالثة، فقال: «إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فخرج أبو بكر فصلى فوجد النبي صلى الله عليه وسلم من نفسه خفة، فخرج يهادى بين رجلين، كأني أنظر رجليه تحيطان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر، فأوماً إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن مكانك، ثم أتى به حتى جلس إلى جنبه، قيل للأعمش: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وأبو بكر يصلي بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبي بكر، فقال: برأسه نعم رواه أبو داود، عن شعبة، عن الأعمش بعضه، وزاد أبو معاوية جلس عن يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي قائماً. (أخرجه البخاري (٦٦٤) ومسلم (٤١٨)).

صلاة الصبح بالحديبية وهي منطقة قريبة أو محاذية لحرم مكة من الجهة الغربية على بعد اثنين والعشرين وكيلومترا من جهة الغرب، وهي حدّ الحرم من جهة الغرب^(٤٩).

هنالك بالحديبية، ويقال: بالحديبية بالتحفيف^(٥٠).

هنالك بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم يوم جاء معتمرا ولم تتحرك، وقال الناس: فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»^(٥١).

^(٤٩) قال ياقوت الحماوي رحمه الله: وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تحتها، وقال الخطابي في أماليه: سميت الحديبية بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع، وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، وفي الحديث: انها بئر، وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم، وهو أبعد الحل من البيت وليس هو في طول الحرم ولا في عرضه بل هو في مثل زاوية الحرم، فلذلك صار بينها وبين المسجد أكثر من يوم. ("معجم البلدان" / ٢ / ص ٢٢٩).

^(٥٠) قال ياقوت الحموي رحمه الله: اختلفوا فيها فمنهم من شددها ومنهم من خففها، فروي عن الشافعي، رضي الله عنه، أنه قال: الصواب تشديد الحديبية وتخفيف الجعرانة، وأخطأ من نص على تخفيفها، وقيل: كل صواب، أهل المدينة يتقلونها وأهل العراق يخففونها. ("معجم البلدان" / ٢ / ص ٢٢٩).

^(٥١) أخرجه البخاري (٢٧٤١) عن مسور بن مخرمة رضي الله عنها.

منع الله عز وجل الناقة أن تتقد إلى حرم الله حتى لا تصطدم الأنفس ببعضها ويحصل القتل بحرم الله، فعظم الله حرمة وبيته الآمن وحصل صلح الحديبية كما تعلمون.

صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء^(٥٢) كانت من الليلة.

والإثر بمعنى: ما يعقبه الشيء ويحيى بعده. فإذن: جاء المطر في الليل وبعدها جاءت صلاة الصبح.

وهذا فيه دليل على رد تلك المقالة: أن الناس إذا أمطروا في الليل دل على سخط الله عليهم إذ لا يجب منهم أن يروا نعمته ولا يجب أن يروا غيث السماء فيمطروا وهم نائمون. وهذا غير صحيح.

ولذلك مطر الناس على عهد رسول الله في ليلهم كما تسمعون وفي نهارهم كما جاء في الصحيحين^(٥٣) عن أنس رضي الله عنه قال: أصابت الناس سنة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في يوم

^(٥٢) قال ابن حجر رحمه الله: قوله: (فيما سقت السماء) أي: المطر، سماه سماء لتزوله من السماء. وكذا قوله: (على أثر سماء). ("فتح الباري" / ١ / ص ١٣٤).

^(٥٣) أخرجه البخاري (٩٣٣) ومسلم (٨٩٧).

جمعة قام أعرابي، فقال يا رسول الله: هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيده، ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم، فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد وبعد الغد، والذي يليه، حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي - أو قال: غيره - فقال: يا رسول الله، تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهرا، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود.

إذن، كان الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يمطرون في ليلهم وفي نهارهم، ولم يجعل المطر في الليل دليل النعمة أو دليل السخط من الله على عباده كما زعمه البعض.

(صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة).

وما هي السماء في هذا الحديث؟ هي الماء لأنه ينزل من السحاب الذي بين السماء والأرض. ولذلك قالوا: كل ما هو علا فهو السماء^(٥٤). فالمطر ينزل من السحاب. ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾^(٥٥) [الواقعة: ٦٩].

فلنزوله من السحاب، والسحاب في العلو، سمي أيضاً سماء لما يكون من المجاورة ولابتداء من ذلك المكان، ولذلك قالوا في الخارج من دبر الإنسان غائط لأنه يكون في الغائط المنخفض من الأرض كما كانت العرب الأولى تفعل يذهبون إلى كل منخفض من الأرض حتى يغيبوا أجسامهم عن أنظار الناس وهنالك يقضون حاجتهم فليل لذلك الخارج غائط^(٥٦)، كما قيل المطر من السماء سماء، ويقال له أيضاً مطراً. نعم.

^(٥٤) قال الراغب رحمه الله: وسمي المطر سماء لخروجه منها، قال بعضهم: إنما سمي سماء ما لم يقع بالأرض اعتباراً بما تقدم، وسمي النبات سماء، إما لكونه من المطر الذي هو سماء، وإما لارتفاعه عن الأرض. والسماء المقابل للأرض مؤنثة، وقد تذكر. ("المفردات في غريب القرآن" / ص ٤٢٧).

^(٥٥) قال القرطبي رحمه الله: (أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ) أي: السحاب، الواحدة مزنة، فقال الشاعر:

فنحن كماء المزن ما في نصابنا ... كهام ولا فينا يعد بخيل

(انتهى من "الجامع لأحكام القرآن" / ١٧ / ص ٢٢٠).

^(٥٦) قال القرطبي رحمه الله: الغائط أصله ما انخفض من الأرض، والجمع الغيطان أو الأغواط، وبه سمي غوطة دمشق. وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء حاجتها تسترا عن أعين الناس، ثم

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا
أَسْلِحَتَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

والمطر أيضا يطلق في كتاب الله على الحجارة التي أنزلها الله عذابا على من
شاء من عباده الفجرة الطغاة الظالمين. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ
الْمُنْذَرِينَ﴾^(٥٧) [الشعراء: ١٧٣]، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ
مَنْضُودٍ﴾^(٥٨) [هود: ٨٢].

سمي الحدث الخارج من الإنسان غائطاً للمقارنة. وغط في الأرض يغوط إذا غاب. (انتهى من "الجامع
لأحكام القرآن" / ٥ / ص ٢٢٠).

^(٥٧) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي: حجارة من سجيل منضود مسومة
عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد؛ ولهذا قال: ﴿فساء مطر المنذرين﴾ أي: الذين قامت عليهم الحجة،
ووصل إليهم الإنذار، فخالقوا الرسول وكذبوه، وهموا بإخراجه من بينهم. ("تفسير القرآن
العظيم" / ٦ / ص ٢٠١).

^(٥٨) والسجيل كما قال الإمام الطبري رحمه الله: والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله المفسرون، وهو أنها
حجارة من طين، وبذلك وصفها الله في كتابه في موضع، وذلك قوله: (لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة
عند ربك للمسرفين) [سورة الذاريات: ٣٣، ٣٤]. ("جامع البيان" / ١٥ / ص ٤٣٥).

والمضود كما قاله الإمام الطبري رحمه الله: والصواب من القول في ذلك ما قاله الربيع بن أنس،
وذلك أن قوله: (منضود) من نعت "سجيل"، لا من نعت "الحجارة"، وإنما أمطر القوم حجارة من طين،
صفة ذلك الطين أنه نضد بعضه إلى بعض، فصير حجارة، ولم يمطروا الطين، فيكون موصوفا بأنه تتابع على
القوم بمجيئه. ("جامع البيان" / ١٥ / ص ٤٣٧).

نعم. وهذا المطر وهذا الغيث وماء السماء لعظمته كثرت أسماءه، وكثرت أوصافه. ولذلكم والله المثل الأعلى لعظمة الله وكبريائه وجلاله كثرت أسماءه وكثرت صفاته. والنبى صلى الله عليه وسلم وجلالته في قلوب الأمة المحمدية وفي قلوب الصالحين من الأمم السابقة كثرت أسماءه وصفاته. وكذلك القرآن لعظمته كثرت أسماءه وصفاته. وهكذا الجنة والنار ويوم القيامة كل شيء عظيم تكثر أسماءه وصفاته.

فقالوا: من أسماء المطر إذا كان في مبدئه رش وطش. ثم إذا تزايد قيل فيه بعد ذلك طل ورباض ثم إذا تزايد قيل فيه بعد ذلك ناضح ونضخ، وهو القطر بين القطرين، ثم إذا تزايد قيل فيه هطل وتهتال، ثم إذا تزايد جدا وأصبح غزيراً ينزل بغزارة وكثافة يقال لها وابل ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥].^(٥٩)

وجود^(٦٠)، وما أشبه ذلك من الأسماء.

^(٥٩) قال المناوي رحمه الله: الطل: سن من أسنان المطر خفي لا يدركه الحس حتى يجتمع، فإن المطر ينزل خفياً عن الحس وهو الطل، ثم يبدو بلطافة وهو الطش، ثم يقوى وهو الرش، ثم يتزايد ويتصل وهو الهطل، ثم يكثر ويتقارب وهو الوابل ذكره الحارلي. ("توقيف على مهمات التعاريف" / ص ٢٢٧).

^(٦٠) قال ابن فارس رحمه الله: والجود: المطر الغزير. ("مقاييس اللغة" / ١ / ص ٤٩٣).

كل هذا من أسماء المطر لعظمته. وهو من الآيات العظيمة التي تحتاج إلى التدبر والتأمل. ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٦١)
[الروم: ٥٠].

هذا هو غيث السماء، هذا هو المطر. كثرت صفاته أيضا بالتالي.

فمن صفاته أنه طهور لأنه طاهر في نفسه ويطهر الأبدان مما علق بها من الأقدار والنجاسات ومما علق بها من الأوصاف كالأحداث: الحدث الأصغر

^(٦١) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعني: المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات، ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ("تفسير القرآن العظيم" / ٦ / ص ٣٢٣).

والحدث الأكبر. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(٦٢) [الفرقان: ٤٨]، ﴿وَيُنزَّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَكُمْ بِهِ﴾^(٦٣) [الأنفال: ١١].

والله لو عدم الناس الماء لأصيب بأمراض الصحية والأمراض النفسية ولربما فقدوا عقولهم من بين أبدانهم لأن القذارة والأوساة إذا تجمعت في الإنسان أصيب بعد هذا بأمراض صحية وأمراض نفسية فلذلك كان المطر مطهرة للناس من كل الأدران ومن كل الأقدار ورافع لكل الأحداث. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(٦٤) [الفرقان: ٤٨].

^(٦٢) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وهذا أيضا من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشرا، ومنها ما يكون قبل ذلك يقيم الأرض، ومنها ما يلقي السحاب ليمطر؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي: آلة يتطهر بها، كالسحور والوقود وما جرى مجراه. ("تفسير القرآن العظيم" / ٦ / ص ١١٤).

^(٦٣) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿لِيُطَهَّرَكُمْ بِهِ﴾ أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن. ("تفسير القرآن العظيم" / ٤ / ص ٢٤).

^(٦٤) قال القرطبي رحمه الله: فبين أن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه مطهر لغيره، فإن الطهور بناء مبالغة في طاهر، وهذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهرا مطهرا. وإلى هذا ذهب الجمهور. ("تفسير القرطبي" / ١٣ / ص ٣٩).

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾^(٦٥) [ق: ٩]

انظر إلى آثار تلك البركة على الناس والحيوان والنبات والأرض والزروع وسائر الأحياء في الأرض حتى الحشرات وكل ما كان تدبّ فيه الحياة الحيوانية فإنه يحتاج إلى غيث السماء والمطر. هذا المطر الذي وصفه الله بأنه فرات. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَاحِحَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾^(٦٦) [المرسلات: ٢٧].

هذا الماء الذي وصفه الله بأنه ثجاج. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾^(٦٧) [النبأ: ١٤].

فإذن، هذا يدل على العظمة.

^(٦٥) قال الإمام الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: (ونزلنا من السماء ماء) مطرا مباركا، فأثبتنا به بساتين أشجارا، وحب الزرع المحصود من البر والشعير، وسائر أنواع الحبوب. ("جامع البيان" / ٢٢ / ص ٣٣٤).

وهذا يدل على كثرة منافع المطر، ذلك ينطبق على معنى البركة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وأما البركة فإنها لما كان مسهاها كثرة الخير واستمراره شيئا بعد شيء كلما انقضى منه فرد خلفه فرد آخر، فهو خير مستمر يتعاقب الأفراد على الدوام شيئا بعد شيء. ("بدائع الفوائد" / ٢ / ص ٦٧٥ / دار عالم الفوائد).

^(٦٦) قال القاضي ابن عطية رحمه الله: و «الفرات»: الصافي العذب، ولا يقال للملح فرات وهي لفظة تجمع ماء المطر ومياه الأنهار. ("المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" / ٥ / ص ٤١٩).

^(٦٧) قال القاضي ابن عطية رحمه الله: و «الثجاج»: السريع الاندفاع كما يندفع الدم عن عروق الذبيحة. ("المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" / ٥ / ص ٤٢٤).

فلما انصرف من صلاته قال: (أتدرون ماذا قال ربكم)

فلما انصرف من صلاته إما بالتسليم وإما بالخروج وإما بالانصراف الحسي أقبل على الناس. وفي هذا أدب من آداب الإمام أنه إذا انصرف من صلاته يقبل على الناس بوجهه حتى لا يستدبرهم بظهره ويبقى هكذا إلى أن ينصرف الناس^(٦٨) وإنما ينصرف عليهم احتراماً لهذا الجمع وإجلالاً لهؤلاء المصلين.

^(٦٨) هكذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

عن سمرة بن جندب، قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه». (أخرجه البخاري (٨٤٥)).

وعن أنس بن مالك، قال: أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة ذات ليلة إلى شطر الليل، ثم خرج علينا، فلما صلى أقبل علينا بوجهه، فقال: «إن الناس قد صلوا ورقدوا، وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرت الصلاة». (أخرجه البخاري (٨٤٧) ومسلم (٦٤٠)).

وعن أنس، قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه، فقال: «أيها الناس، إني إمامكم، فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود، ولا بالقيام ولا بالانصراف، فإني أراكم أمامي ومن خلفي» ثم قال: «والذي نفس محمد بيده، لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قالوا: وما رأيتم يا رسول الله قال: «رأيت الجنة والنار». (أخرجه مسلم (٤٢٦)).

وقد بوب البخاري في صحيحه: باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وسباق سمرة ظاهره أنه كان يواظب على ذلك. قيل: الحكمة في استقبال المأمومين أن يعلمهم ما يحتاجون إليه. فعلى هذا يختص بمن كان في مثل حاله صلى الله عليه وسلم من قصد التعليم والموعظة. وقيل: الحكمة فيه تعريف الداخل بأن الصلاة انقضت إذ لو استمر الإمام على

نعم أيها المسلمون، أراد رسول الله أن يعطي الناس درساً في العقيدة والتوحيد والإيمان^(٦٩) على إثر هذا المطر . وفي هذا انتهاز الفرصة لتعليم الناس عند المناسبات وعند الأمور الملائمة للتعليم. نعم أراد رسول الله أن يعطيهم درساً في العقيدة لأنهم على إثر سماء كانت من الليل هم أكرمهم الله قبل لحظات بغيث السماء، هذا الغيث الذي هو الرحمة من الله على عباده. ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾^(٧٠) [الحج: ٥]

حاله لأوهم أنه في التشهد مثلاً. وقال الزين ابن المنير: استدبار الإمام المأمومين إنما هو لحق الإمامة فإذا انقضت الصلاة زال السبب فاستقبلهم حينئذ يرفع الخيلاء والترفع على المأمومين، والله أعلم. ("فتح الباري" / ٢ / ص ٣٣٤).

^(٦٩) درس العقيدة والإيمان هو من أهم الأمور على الإطلاق. قال الإمام اللالكائي رحمه الله: فإن أوجب ما على المرء: معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين. ("شرح أصول اعتقاد أهل السنة" / ١ / ص ٢).

^(٧٠) قال القاضي ابن عطية رحمه الله: واهتزاز الأرض هو حركتها بالنبات وغير ذلك مما يعتريها بالماء، وَرَبَّتْ معناه نشزت وارتفعت ومنه الربوة وهو المكان المرتفع. ("المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" / ٤ / ص ١٠٩).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٧١) [فصلت: ٣٩]

الله أكبر.

وإياك أن تكفر أنعم الله ، فربما جعل الله المطر نقمة^(٧٢) . نعم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٧٣) [النور: ٤٣].

^(٧١) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿ومن آياته﴾ أي: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أنك ترى الأرض خاشعة﴾ أي: هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ أي: أخرجت من جميل ألوان الزروع والشمار، ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾. ("تفسير القرآن العظيم" / ٧ / ص ١٨٢).

^(٧٢) قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: إن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها وكثيرا ما يجرد ذلك إلى الأشر والبطر والسجود ذل لله وعبودية وخضوع فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها فكان جديرا بدوام تلك النعمة وإذا تلقاها بالفرح الذي لا يجبه الله والاشر والبطر كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال وانقلبت نقمة وعادت استدراجاً. ("عدة الصابرين" / ص ١٣٦).

يتلف الله الزروع والثمار على الناس وهذا بذنوب صدرت منهم. فجعل الله المطر والبرد وغيث السماء متلفا لمقدراتهم وزروعهم وثمارهم. جعله الله نقمة.

^(٧٣) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي: يجمعه بعد تفرقه، ﴿ثم يجعله ركاما﴾ أي: مترابعا، أي: يركب بعضه بعضا، ﴿فترى الودق﴾ أي المطر ﴿يخرج من خلاله﴾ أي: من خلله. وكذا قرأها ابن عباس والضحاك.

قال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله الميثرة فتقم الأرض قما، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللوايح فتلقح السحاب. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾: قال بعض النحاة: "من" الأولى: لا ابتداء الغاية، والثانية: للتبعيض، والثالثة: لبيان الجنس. وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله: ﴿من جبال فيها من برد﴾ ومعناه: أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد. وأما من جعل الجبال ههنا عبارة عن السحاب، فإن "من" الثانية عند هذا لا ابتداء الغاية أيضا، لكنها بدل من الأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فيصيب به﴾ أي: بما ينزل من السماء من نوعي البرد والمطر فيكون قوله: ﴿فيصيب به من يشاء﴾ رحمة لهم، ﴿ويصرفه عن من يشاء﴾ أي: يؤخر عنهم الغيث. ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فيصيب به﴾ أي: بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم. ويصرفه عن من يشاء أي: رحمة بهم.

وقوله: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالآبصار﴾ أي: يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته.

(انتهى من "تفسير القرآن العظيم" // ٦ / ص ٧٢-٧٣).

ولذلك انظروا إلى قصة نوح وابنه لما دعاه أن يركب معهم في السفينة لينجو بنفسه وكان شقيقا على ولده رحيمًا به. قال الولد الطاغي المتكبر: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾^(٧٤).

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾^(٧٥) [هود: ٤٣].

نعم. ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٧٦) [العنكبوت: ٤٠].

^(٧٤) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله. ("تفسير القرآن العظيم" / ٤ / ص ٣٢٣).

^(٧٥) قال الإمام السعدي رحمه الله: ف ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ فلا يعصم أحدا، جبل ولا غيره، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب، لما نجا إن لم ينجه الله. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ﴾ الابن ﴿مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾. ("تيسير الكريم الرحمن" / ص ٣٨٢).

^(٧٦) قال الإمام السعدي رحمه الله: ﴿فَكَلَّا﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ على قدره، وبعقوبة مناسبة له، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي: عذابا يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَحْلٍ حَاوِيَةٍ﴾ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كقوم صالح، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾

إذن، يجعل الله الماء النازل من السماء نعمة على قوم وهلكة ودمارا وعقابا على قوم آخرين.

نسأل الله أن يجعل الغيث علينا نعمة ورحمة.

معاشر المسلمين، هذا الغيث الذي نزل من السماء له أسباب جالبة وله أسباب سالبة، أسباب تجلبه وأسباب تسلبه. من بين أظهر الناس فيصبح طول سنة وقحط وجذب وذهاب الخير من بين أظهرهم.

من أسباب جلبه يا معاشر المسلمين تقوى الله والعمل بشرعه والقيام بدينه. قال الله عز وجل في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٧٧) [الأعراف: ٩٦].

كفرعون وهامان وجنودهما. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق. ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ منعوها حقها التي هي بصدده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضررها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم ينفعونها. ("تيسير الكريم الرحمن" / ص ٦٣١).

^(٧٧) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ أي: قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: ﴿ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾

أن يأخذهم الله بالقحط والجذب والسنين^(٧٨).

ومن أسباب الغيث الجالبة له المعجمة خيره بين الناس وبين مقدراتهم وأراضيهم وحقولهم: الاستغفار ولزوم التوبة لوما بعد يوم وليلة بعد ليلة في الليل والنهار، في السر والعلانية. ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾^(٧٩) [نوح: ١٠، ١٢].

أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم. ("تفسير القرآن العظيم" / ٣ / ص ٤٥١).

^(٨٠) قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد أخبر الله تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات والاستغفار سبب للرزق والنعمة وأن المعاصي سبب للمصائب والشدة. ("مجموع الفتاوى" / ١٦ / ص ٥٣).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: ومن عقوباتها: أنها تحقق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة. وبالجملة أنها تحقق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا - لنفتنهم فيه﴾ [الجن: ١٦ - ١٧]. وإن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه. ("الجواب الكافي" / ص ٨٤).

^(٨١) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدر لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال

ومن الأسباب الجلابة لهذا الغيث من السماء بإذن الله المولى الرؤوف الرحيم: الاستقامة على شرع الله وعدم التحريف والتغيير والبديل. الاستقامة على الصراط المستقيم سبب لرغد العيث والأمن والرخاء. ﴿وَأَلِّوْا سِتْقَامًا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾^(٨٠) [الجن: ١٦].

ومن ذلك: صلاة الاستسقاء إذا استبطأ الناس الغيث يستسقون في المصلى أو الجبانة أو العراء يخرجون يبتهلون إلى الله كما فعله النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ليعلم الأمة. أخرج الشيخان في الصحيحين^(٨١) من حديث عبد الله بن زيد المازني، يقول: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى، فاستسقى، وحول رداءه حين استقبال القبلة».

والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها. ("تفسير القرآن العظيم" / ٨ / ص ٢٣٣).

^(٨٠) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: أحدهما: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها، ﴿لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي: كثيرا. والمراد بذلك سعة الرزق... إلخ. ("تفسير القرآن العظيم" / ٨ / ص ٢٤٢).

^(٨١) أخرجه البخاري (١٠٠٥) ومسلم (٨٩٤).

ما كان عليه من جبة أو رداء قلبه تفاعلاً بقلب الحال^(٨٢) أو يكون الدعاء في خطبة الجمعة إذا استبطأ الناس غيث السماء فاستذهبوهم إلى الله رب العالمين الذي يأتي بإذنه وحوله وقوته.

ومن ذلك دعاء الاستسقاء في خطبة الجمعة، كما في الصحيحين^(٨٣) من قصة أعرابي قال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يغثنا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، ثم قال: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا» قال أنس: ولا والله، ما نرى في السماء من سحاب، ولا قزعة وما بيننا

^(٨٢) قال ابن حجر رحمه الله: فعرف بذلك أن التحويل وقع في أثناء الخطبة عند إرادة الدعاء. واختلف في حكمة هذا التحويل، فجزم المهلب بأنه للتفاؤل بتحويل الحال عما هي عليه. وتعقبها بن العربي بأن من شرط الفأل أن لا يقصد إليه. قال: وإنما التحويل أمارة بينه وبين ربه قيل له: حول رداءك ليتحول حالك. وتعقب بأن الذي جزم به يحتاج إلى نقل. والذي ردّه ورد فيه حديث رجاله ثقات أخرجه الدارقطني والحاكم من طريق جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن جابر ورجح الدارقطني إرساله. وعلى كل حال فهو أولى من القول بالظن. وقال بعضهم: إنما حول رداءه ليكون أثبت على عاتقه عند رفع يديه في الدعاء فلا يكون سنة في كل حال. وأجيب بأن التحويل من جهة إلى جهة لا يقتضي الثبوت على العاتق. فالحمل على المعنى الأول أولى فإن الاتباع أولى من تركه لمجرد احتمال الخصوص، والله أعلم. ("فتح الباري لابن حجر ٢/ ٤٩٩).

الحديث المشار إليه أخرجه الحاكم في "المستدرک" (١٢١٦) عن جابر، قال: «استسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحول رداءه ليتحول القحط».

^(٨٣) أخرجه البخاري (١٠١٤) ومسلم (٨٩٧) عن أنس رضي الله عنه.

وبين سلع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت.

معاشر المسلمين. هذا المطر والغيث النازل من السماء، قال الرسول على إثره: «أتدرون ماذا قال ربكم^(٨٤)؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

في هذا أدب الصحابة رضي الله عنهم أنهم يعرفون قدر أنفسهم ولذلك كانوا هم العلماء حقا فإذا سئلوا عن شيء لهم في علم أجابوا، وإن سئل عن شيء ليس فيهم علم قالوا: (الله ورسوله أعلم) إذا سئلوا من قبل رسول الله يسألهم عن الأمور الشرعية يقولون: (الله ورسوله أعلم)^(٨٥) وفي هذا أيضا تعليم لنا أن

^(٨٤) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: وقوله: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟) - وفي بعض الروايات: (الليلة)، وهي تدل على أن الله تعالى يتكلم بمشيئته واختياره. ("فتح الباري" / لابن رجب / ٩ / ص ٢٥٩).

^(٨٥) فائدة: قال الإمام ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «قلنا: الله ورسوله أعلم». جاء العطف بالواو؛ لأن علم الرسول من علم الله، فهو الذي يعلمه بما لا يدركه البشر. وكذلك في المسائل الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بشرع الله، وعلمه به من علم الله، وما قاله صلى الله عليه وسلم في الشرع فهو كقول الله وليس هذا كقوله: «ما شاء الله وشئت»؛ لأن هذا في باب القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم مشاركا لله في ذلك، بل يقال: ما شاء الله، ثم يعطف بـ (ثم)، والضابط في ذلك أن الأمور الشرعية يصح فيها العطف بالواو، وأما الكونية فلا. ومن هنا نعرف خطأ وجهل من يكتب على بعض الأعمال: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ [التوبة: ١٠٥] بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم وتعذر رؤيته، فالله يرى، ولكن رسوله لا يرى؛ فلا تجوز كتابته لأنه كذب عليه صلى الله عليه وسلم. ("مجموع فتاوى ورسائل العثيمين" / ١٠ / ص ١١٣٠).

نقول: (الله ورسوله أعلم) في الأمور الشرعية إذا ما سئلتنا عنها. وأما في الأمور القدريّة من نزول الغيث وعلم ما في الأرحام من الأجنة وعلم الساعة فلا نقولنا في ذلك إلا: (الله أعلم) لأن الرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان حيا فإنه لا يعلم مفاتيح الغيب التي جعل الله مفاتيح للغيب. روى البخاري في صحيحه^(٨٦) عن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿مفاتيح الغيب﴾ [الأنعام: ٥٩] خمس: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾.

فإذا قيل لك: (متى تقوم الساعة) فلا تقولن إلا: (الله أعلم) لأن الرسول إن كان حيا بين أظهرنا سيقول: (الله أعلم). فقد قال لجبريل: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل). فلما سأل رسول الله الصحابة: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟) نعم، علموا أن هذا من لتعليم الشرعي ومن العلوم الشرعية وعلمهم ربهم فقالوا: (الله ورسوله أعلم).

^(٨٦) أخرجه البخاري (٤٦٢٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وأخرج البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (١٠) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله»، ثم قرأ: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ [لقمان: ٣٤].

نسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا.

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً مزيداً، أما بعد:

قال النبي عليه الصلاة والسلام: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟) قالوا: (الله ورسوله أعلم). قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)

وهذه العبودية هي العبودية بمفهومها العام^(٨٧)، نعم، ليدخل فيها البر والفاجر والمسلم والكافر، نعم، والمؤمن والفاستق، يدخلون في هذا المفهوم.

^(٨٧) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً - لقد جئتم شيئا إدا - تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا - أن دعوا للرحمن ولداً - وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً - إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣] فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء﴾ [الفرقان: ١٧] فسأهم عباده مع ضلالهم، لكن تسمية مقيدة بالإشارة، وأما المطلقة فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

(أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر). ولذلك قال الله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(٨٨) [مريم: ٩٣]

وقال تعالى: ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون﴾ [الزمر: ٤٦] وقال: ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ [غافر: ٣١] وقال: ﴿إن الله قد حكم بين العباد﴾ [غافر: ٤٨] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ [الزخرف: ٦٨] وقال: ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ [الزمر: ١٧] وقال: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى عن إبليس: ﴿ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [الحجر: ٣٩] فقال تعالى عنهم ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢]. فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته.

(انتهى من " مدارج السالكين " / ١ / ص ١٢٥-١٢٦).

^(٨٨) قال الإمام ابن عثيمين رحمه الله: واعلم أن العبودية لها معنيان: خاص؛ وعام؛ والخاص له أخص؛ وهو خاص الخاص؛ فمن العام قوله تعالى: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتِي الرحمن عبداً﴾ [مريم: ٩٣]؛ وأما الخاص فمثل قوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ المراد بهم عباد الرحمن المتصفون بهذه الصفات؛ فيخرج من لم يتصف بها؛ وأما الأخص مثل قوله تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾ [الفرقان: ١]؛ هذه عبودية الأخص - عبودية الرسالة - . ("تفسير العثيمين" / الفاتحة والبقرة / ٢ / ص ٤٥٢).

بما فيهم البر والفاجر والمسلم والكافر. فالكافر عبد الله وإن رغم أنفه،
والفاجر عبد الله وإن رغم أنفه. ومن هذا القبيل قول الله في حديث قدسي: «يا
عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(٨٩).

فالنداء لعموم الخلق، فهم عباد الله أجمعون. وهذه هي العبادة
القهرية^(٩٠). وهناك عبادة خاصة اختيارية يثاب صاحبها وهي ما كنت عن

^(٨٩) عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي
إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني
أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته
فاستكسوني أكسكم. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم».
الحديث. (أخرجه مسلم (كتاب البر والصلة/ تحريم الظلم/ (٢٥٧٧)).

^(٩٠) قال شيخ الإسلام رحمه الله: واسم العبد يتناول معنيين. "أحدهما" بمعنى العابد كرها كما قال: ﴿إِنَّ كُلَّ
مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وقال: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾
وقال: ﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿كُلُّ لَه قَانِتُونَ﴾ وقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا﴾.

و "الثاني" بمعنى العابد طوعاً وهو الذي يعبد ويستعينه وهذا هو المذكور في قوله: ﴿وَعِبَادُ
الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وقوله: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ وقوله: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ
الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا
أَوْحَى﴾ وقوله: ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقوله: ﴿سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ
اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾. وهذه العبودية قد يخلو الإنسان منها تارة وأما الأولى فوصف لازم إذا أريد بها جريان القدر
عليه وتصريف الخالق له.

طواعية واختيار من العباد لصالحين. ومنها قول الله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٩١) [الفرقان: ٦٣]. نعم، فهم عباد بمفهوم خاص.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٩٢) إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ^(٩٣) [الحجر: ٤٢]، أي: عباده البررة المؤمنون الأخيار ليس للشيطان عليهم سلطان. نعم.

(انتهى من "مجموع الفتاوى" / ١٤ / ص ٢٩-٣٠).

^(٩١) قال الإمام السعدي رحمه الله: العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد لله مربيون مدبرون ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته وهي عبودية أنبيائه وأوليائه وهي المراد هنا ولهذا أضافها إلى اسمه "الرحمن" إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته. ("تيسير الكريم الرحمن" / ص ٥٨٦).

^(٩٢) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان، قال تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾. ولما علم عدو الله إبليس أن الله تعالى لا يسلم عباده إليه ولا يسلمه عليهم قال: ﴿فبِعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ * إلا عبادك منهم المخلصين ﴿ . وقال تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين﴾ * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴿ . فلم يجعل لعدوه سلطاناً على عباده المؤمنين، فإنهم في حوزة وكلاءته وحفظه وتحت كنفه، وإن اغتال عدوه أحدهم كما يغتال اللص الرجل الغافل فهذا لا بد منه، لأن العبد قد يلي بالغفلة والشهوة والغضب، ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة ولو احتزر العبد ما احتزر. ("الوابل الصيب" / ص ٦).

قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)

وصدق الله إذ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾^(٩٤)

[التغابن: ٢]

^(٩٣) قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله كما قال تعالى عن إبليس: ﴿وَأَغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمَخْلُصِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾. فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا على من أشرك به فكل من أطاع الشيطان في معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك. ("جامع الرسائل" / لابن تيمية / ٢ / ص ٢٩١).

^(٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألم تروا إلى ما قال ربكم؟ قال: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين. يقولون الكواكب والكواكب». (أخرجه مسلم (٧٢)).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: يعني: أنه خلق الكل وقد اعترفوا به بذلك، فمنهم من شكر خالقه واعترف له بالنعم، وبالإخراج من العدم إلى الوجود، فحقق فعله، وقبل من رسله، ووجد ربه. ومنهم من كفر ولم يشكر خالقه، وأشرك به ما لا يجوز له، وكذب برسله، فصار كافراً بفعله. وقد روي نحو من هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه فإما شاكراً وإما كفوراً». وقد قال تعالى: ﴿فَأذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾، فلما امتثل ذلك قوم، وعدل عنه آخرون، كانوا هم المرادين من قوله: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾. ("درء تعارض العقل والنقل" / ٨ / ص ٤٩٦).

نعم، الله الذي خلقنا واقتضت حكمته الكونية أن يكون الناس صنفين: صنفاً من الكفار وصنفاً من الأخيار المسلمين والمؤمنين^(٩٥).

فما هو وصف هذا المؤمن؟ قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)

(فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب).

أرأيت أن الشكر يدخل في مسمى الإيمان، وأن الأقوال للعبد تدخل في مسمى الإيمان^(٩٦). فهذا مؤمن، ومن أدلة إيمانه أنه قال: (مطرنا بفضل الله ورحمته) أضاف النعمة إلى مسديها وإلى الباري جل جلاله^(٩٧).

^(٩٥) قال الإمام ابن كثير الإسلام رحمه الله: وقوله: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك، فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده، وسيجزئهم بها أتم الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿والله بما تعملون بصير﴾. ("تفسير القرآن العظيم" / ٨ / ص ١٣٥).

^(٩٦) قال الإمام الثوري رحمه الله: الإيمان قول وعمل ونية، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولا يجوز القول إلا بالعمل، ولا يجوز القول والعمل إلا بالنية، ولا يجوز القول والعمل والنية إلا بموافقة السنة. ("شرح السنة للثوري" / ص ٢).

وقال الإمام البغوي رحمه الله: اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة أن الأعمال من الإيمان، وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة اهـ. ("شرح السنة للبغوي" / ١ / ص ٣٨).

وهذا الغيث له أذكار قبل حلوله، وفي أذناء حلوله وأذكار من بعد حلوله. فإذا استبتأ الناس غيث السماء يقولون من أذكارهم: (اللهم اسقنا) ^(٩٨) (اللهم أغثنا) ^(٩٩) ويلهجون بهذا الدعاء في أوقات الإجابة وفي سجودهم ^(١٠٠) وفي سائر الأوقات المرضية. نعم.

وقال الإمام الحافظ ابن القطان الفاسي رحمه الله: وأجمعوا أن الإيمان قول، وعمل، ونية، مع إصابة السنة اهـ. ("الإقناع في مسائل الإجماع" / ذكر الإيمان / ج ١ / رقم (٣ / ١)).

وفي رقم (١ / ٣) قال رحمه الله: وأجمعوا أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية اهـ.

^(٩٧) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فإن رأس الشكر الاعتراف بالنعمة وأنها من المنعم وحده فإذا أضيفت إلى غيره كان جحدا لها. ("شفاء العليل" / ص ٣٨).

^(٩٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة، فقام الناس، فصاحوا، فقالوا: يا رسول الله، قحط المطر، واحمرت الشجر، وهلكت البهائم، فادع الله يسقينا، فقال: «اللهم اسقنا» مرتين، وإيم الله، ما نرى في السماء قرعة من سحاب، فنشأت سحابة وأمطرت، ونزل عن المنبر فصلي، فلما انصرف، لم تزل تمطر إلى الجمعة التي تليها، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم يخطب، صاحوا إليه تهدمت البيوت، وانقطعت السبل، فادع الله يحبسها عنا، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فكشطت المدينة، فجعلت تمطر حولها ولا تمطر بالمدينة قطرة، فنظرت إلى المدينة وإنها لفي مثل الإكليل. (أخرجه البخاري (١٠٢١) ومسلم (٨٩٧) وهذا لفظ البخاري).

فإذا نزل غيث السماء فهم يقولون حينئذ: (اللهم صيبا نافعا) ^(١٠١) لأن الله قد يجعله الله صيبا ضارا على الناس والدواب والحيوان والزرع والمسكن والجسور وسائر المرافق في الحياة. فحينئذ يكون ضارا علينا، فنقول: (اللهم صيبا نافعا).

وربما كما قال صحيح مسلم ^(١٠٢) عن أنس رضي الله عنه: أصابنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مطر، قال: فحسر رسول الله صلى الله عليه

^(١٠٠) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء». (أخرجه مسلم (٤٨٢)).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له، ألا وإني نهيته أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم». (أخرجه مسلم (٤٧٩)).

^(١٠١) عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى المطر، قال: «اللهم صيبا نافعا». (أخرجه البخاري (١٠٣٢)).

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان إذا رأى ناشئا في أفق السماء ترك العمل وإن كان في صلاة، ثم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من شرها» فإن مطر قال: «اللهم صيبا هنيئا». (أخرجه أبو داود (٥٠٩٩) وابن ماجه (٣٨٩٠) وغيرهما/ صحيح).

^(١٠٢) برقم (٨٩٨).

وسلم ثوبه، حتى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ قال: «لأنه حديث عهد بربه تعالى».

أي: حديث عهد بالنزول من السماء.

فلذلك: فالله في السماء^(١٠٣). كما في حديث الجارية: قال لها رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «أين الله؟» فقالت: في السماء. فقال: «من أنا؟» فقالت: أنت رسول الله. قال: «فأعتقها - فإنها مؤمنة-». (١٠٤).

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان إذا رأى ناشئاً في أفق السماء ترك العمل وإن كان في صلاة، ثم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من شرها» فإن مطر قال: «اللهم صيباً هنيئاً». (أخرجه أبو داود (٥٠٩٩) وابن ماجه (٣٨٩٠) وغيرهما/ صحيح).

^(١٠٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رده على الجهمية: ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم، وما ركبت عليه خلقتهم، من معرفة الخالق، لعلموا أن الله هو العلي وهو الأعلى، وبالمكان الرفيع، وأن القلوب عند الذكر تسمو نحوه، والأيدي ترتفع بالدعاء إليه. ومن العلو يرجى الفرج، ويتوقع النصر والرزق. ("مجموع الفتاوى" / ٥ / ص ٤٠٤ / دار الوفاء/ إحالة).

^(١٠٤) أخرجه مسلم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه أنه قال: أتيت رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم- فقلت: يا رسول الله إن جارية لي كانت ترعى غنماً لي فجيئتها وفقدت شاة من الغنم فسألتها عنها فقالت: أكلها الذئب، فأسفت عليها وكنت من بني آدم فلطمت وجهها وعلى رقبة فأعتقها؟ فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «أين الله؟» فقالت: في السماء. فقال: «من أنا؟» فقالت: أنت رسول الله. قال: «فأعتقها - فإنها مؤمنة-».

فإذا ما هطل المطر ونزل يقول الناس من بعد هذا: (مطرنا بفضل الله ورحمته) ^(١٠٥). فأين نحن من هذه الأذكار؟ هذا المطر يأتي ويذهب وكأنما يظن الناس أن هذه حوادث طبيعية كما يحصل الزلزال في نظر العلمانيين وكما يحصل الفيضان في نظر من لا دين لهم يظنون أن هذه الآيات ليس لها حكمة ولا لها أسرار. الغيث من السماء دليل الرحمة والزلازل والفيضانات دليل عقوبة وعذاب وسخط من الله ليست المسألة حوادث طبيعية. تب إلى الله من هذا القول الجائر فإن الله هو المدبر للخليقة والمنزل للغيث المدمر على الظالمين إذا ما أراد التدمير عليهم.

معاشر المسلمين. وأما الكافر لأنعم الله الجاحد لغيث السماء فهو الذي يقول: (مطرنا بنوء كذا ونوء كذا) ^(١٠٦). كانوا في الجاهلية يضيفون غيث السماء إلى أنواع النجوم الساطعة في السماء. وربما داهمهم هذا الوهم لأنهم مع موسم الأمطار يرون نجماً فقالوا: (لا تأتي الأمطار عادة إلا مع ظهور هذا النجم فهذا

^(١٠٥) قال القاضي أبو الوليد الباجي رحمه الله: أخبر أن من عباده مؤمنا به وهو من أضاف المطر إلى فضل الله ورحمته وأن المنفرد بالقدرة على ذلك هو الله تعالى دون سبب ولا تأثير لكوكب ولا غيره فهذا المؤمن بالله تعالى كافر بالكوكب بمعنى أنه يكذب قدرته على شيء من ذلك ويجحد أن يكون له فيه تأثير. ("المنتقى شرح الموطأ" / ١ ص ٣٣٤).

^(١٠٦) قال القاضي أبو الوليد الباجي رحمه الله: وأن من عباده من أصبح كافرا به وهو من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فأضاف المطر إلى النوء وجعل له في ذلك تأثيرا وللکوکب فعلاً. ("المنتقى شرح الموطأ" / ١ ص ٣٣٤).

النجم هو الذي أنزل علينا غيث السماء). فيقولون بعد ذلك: (مطرنا بنوء كذا ونوء كذا). ولا علاقة للنوء بذلك وإنما كان هذا تزامناً لا علاقة له بالاستقلال في التدبير ولا بالسببية في إنزال الغيث وإنما كان الأمر اتفاقاً أو كان تزامنا ولا يلزم من ذلك أن يكون النجم الذي هو مخلوق من مخلوقات الله مدبراً لهذا الكون. وهذا ضلال بعيد^(١٠٧).

والله إنك إذا أسديت إلى إنسان إحساناً ومعروفاً فجحده معروفك أنك يمتلى قلبك حزناً وأماً فكيف والله عز وجل هو الذي أنزل هذا الخير على الناس

^(١٠٨) قال الإمام النووي رحمه الله: وأما معنى الحديث فاختلف العلماء في كفر من قال مطرنا بنوء كذا على قولين أحدهما هو كفر بالله سبحانه وتعالى سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام قالوا وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشىء للمطر كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم وهو ظاهر الحديث قالوا وعلى هذا لو قال مطرنا بنوء كذا معتقداً أنه من الله تعالى وبرحمته وأن النوء ميقات له وعلامة اعتباراً بالعادة، فكأنه قال: (مطرنا في وقت كذا). فهذا لا يكفر. واختلفوا في كراهته، والأظهر كراهته لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها. وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها، ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم.

والقول الثاني في أصل تأويل الحديث: أن المراد كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب. ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة في الباب: (أصبح من الناس شاكراً وكافراً)، وفي الرواية الأخرى: (ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين)، وفي الرواية الأخرى: (ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين). فقله بها يدل على أنه كفر بالنعمة والله.

(انتهى من "شرح النووي على مسلم" / ٢ / ص ٦٠-٦١).

والإحسان إلى عباده وهم من بعد هذا بنعمة الله يجحدون ويكفرون يقولون: (نوء كذا ونوء كذا). ومن أضاف غيث السماء إلى الأنواء والنجوم معتقدا أنها تستقل بالتدبير فهو كافر كفرا أكبر يخرج منه من ملة الإسلام^(١٠٨).

ومن أضاف غيث السماء إلى النجوم معتقدا أنها تتسبب في التدبير للخلقة فهو مشرك شركاً أصغر وهو على خطر عظيم.

ومن كان يضيف إلى ذلك الابتهاال إلى النوء والنجم والاضطرار والاستغاثة عند الجذب والقحط (يا نوء يا نوء أنزل علينا الغيث) فإنه حينئذ قد جمع بين الشرك في الربوبية وشرك الألوهية.

ومن كان إنما يقصد إنما مطرنا تزامنا مع النجم فهذا المعنى لا بأس به ولكن ينبغي أن يترك هذه العبارة لأنها تشبه قول أهل الجاهلية. ولذلك نهى الله عز وجل عباده أن يقولوا: (راعنا). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]

^(١٠٨) قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: إن القائل مطرنا بنوء كذا أي بسقوط نجم كذا أو بطلوع نجم كذا إن كان يعتقد أن النوء هو المنزل للمطر والخالق له والمنشئ للسحاب من دون الله، فهذا كافر كفرا صريحا ينقل عن الملة وإن كان من أهلها استتيب فإن رجع إلى ذلك إلى الإيمان بالله وحده وإلا قتل إلى النار. ("الاستذكار" / ٢ / ص ٤٣٧).

لأنه وإن قالوها عن حسن النية وعن معنى صحيح وقصد سليم إلا أن هذه المقالة تشبه مقالة اليهود (راعنا) من الرعونة والقسوة الخشونة التي يزعمونها في رسول الله وإنما هي والله فيهم وفي أخلاقهم وفعالهم وأحوالهم.

معاشر المسلمين، إذن؛ يقول المسلم بعد غيث السماء: (مطرنا بفضل الله ورحمته) (١٠٩).

وإن من البلاء أن يصيب الناس القحط والجذب والمطر نازل عليهم.

ولذلك جاء في مسلم^(١١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليست السنة بأن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا، ولا تنبت الأرض شيئاً»^(١١١).

^(١٠٩) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: يعني: أن من أضاف نعمة الغيث وإنزاله إلى الأرض إلى الله عز وجل وفضله ورحمته، فهو مؤمن بالله حقاً، ومن أضافه إلى الأنواء، كما كانت الجاهلية تعتاده، فهو كافر بالله، مؤمن بالكوكب. ("فتح الباري" / لابن رجب / ٩ / ص ٢٥٩).

^(١١٠) برقم (٢٩٣٤).

^(١١١) قال العلامة المناوي رحمه الله: (ليست السنة) أي الجذب ومنه ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ (بأن لا تمطروا) بالبناء للمجهول (ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا) كرره للتأكيد (ولا تنبت الأرض شيئاً) يعني ليس عام القحط الذي لا تمطر السماء فيه مع وجود البركة بل أن تمطروا ولا تنبت وذلك لأن اليأس بعد وقوع الرجاء بظهور مخايله أقطع مما كان حاصلًا من أول الأمر والنفس مترقبة حدودها قال:

أظلت علينا من نداك غمامة... أضاءت لنا برق وأبطأ رشاشها

إما أن الأرض لا تنبت مع كثرة العناية بها، وهذا محض من الله، وإما أن هذا لا تنبت لأجل انصراف الناس عن الزرع والزراعة^(١١٢) والتفتهم إلى رفاهية الحياة^(١١٣) وإلى المصنعات القادمة الوافدة من دول الكفار^(١١٤) وهم بهذا لا

فلا غيمها يجلو فيأس طامع... ولا غيثها يهيم فيروى عطاشها.

(انتهى من "فيض القدير" / ٥ / ص ٣٩١).

^(١١٢) وذلك يعتبر إضاعة عظيمة للنعم والخيرات.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أخرجه البخاري (٢٣٢٠) ومسلم (١٥٥٣) أنه قال: قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة».

وحدّث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أخرجه مسلم (١٥٥٢) أنه قال: قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: «ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة».

يستفاد من هذين الحديثين: عظيم أجر الزراعة، واستمراره إلى قيام الساعة ما دام يستفاد منه. قال

الإمام النووي رحمه الله: في هذه الأحاديث فضيلة الغرس وفضيلة الزرع وأن أجر فاعلي ذلك مستمر مادام الغراس والزرع وما تولد منه إلى يوم القيامة. ("المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج" / ١٠ / ص ٢١٣).

^(١١٣) قال الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا

لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿ [التكاثر: ١

يهتمون بأراضيهم ولا بمزارعهم. ويأكلون البر والشعير والقمح وسائر الحبوب من أيدي الكفار الشرقيين والغربيين وهم بعد هذا إذا ما فرض عليهم حصار لا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم أسبوعاً، يستسلمون وتنهار القوى والغيث نازل من السماء.

ولذلك يقال: (السنة أن تمطروا وتمطروا لا تنبت الأرض) قد يكون هذا بإهمال من الأدمي. ولذلك شعوب الإسلام كثير منها ليس عندهم اكتفاء ذاتي مع القدرة على الاكتفاء الذاتي من بلدانهم فهي أراضٍ خصبة نافعة زراعية، ولكن لأنهم أهملوا هذا واهتموا بثقافة الشرق والغرب حتى على مستوى الحب يستوردونه من دول الكفار.

نسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا وأن يرزقنا علماً بما ينفعنا.

اللهم أعز الإسلام وانصر المسلمين، وأذل الشرك والمشركين اللهم قاتل الكفرة المحلدين أعداءك أعداء الدين اللهم اجعل من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً، ومن كل عسر يسراً، ومن كل بلاء عافية، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا همماً إلا فرجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا حاجة إلا يسرتها يا رب

(١١٣) قال الله تعالى: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَهَادُ﴾ [آل

العالمين. اللهم اجعل بلدنا هذا آمنا مطمئنا سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين.
اللهم من أراد ببلدنا هذا سوء فاشغله بنفسه واجعل كيده في نحره، واجعل
تدميره في تدبيره واكف المسلمين شره يا رب العالمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

صنعاء، ٢٢ شوال ١٤٣٦ هـ.